الأمير مصطفى الشهابي وكتابه
المصطلحات العلمية في اللغة العربية

الاستاذ أنور الجندي ـ القاهرة

في مناسبة صدور كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » للامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق يتجدد الحديث عن هذا الرائد في أكبر صحف المغرب احتفالا باللغة العربية ، وذلك حتى يلتقى المشرق بالمغرب دائما في مجال البحث العلمي .

والحق ان الامير مصطفى الشهابي منذ وضع قلمه على الورق ، وكتب ونشر في الصحف وهو حتى اليوم وإلى ما بعد من عمره الطويل المديد : «الرجل الذي اقام للزهر والخيل والنبات دولة كبرى في الادب واللغة العربية . »

ولقد حاولت ان اتتبع ذلك في مطالع حياته فاخذت أراجع مجلة المقتطف منذ عهد باكر حتى التقيت به لاول مرة ـ ولا أدري اذا كان قد فاتني مرة او مرات في ابريل 1925 يكتب أولى شظاياه اللغوية بعنوان «اوصاف الخيل العربية في باب الزراعة » منذ ذلك اليوم سجل الامير مصطفى الشهابي مخطط حياته العلمية ورسم اتجاهها ، ومنذ قريب أصدر الامير احدى موسوعاته عن الالفاظ الزراعية وفي خلال ثلاثين عاما كاملة كان ذلك ابرز عمله وانتاجه، حتى في كتاباته الادبية المرسلة والانشائية تبدو دولة الزهر والخيل والنبات قائمة ممتدة . ومجموعة الكتب التي عرض لها منذ اتصل بمجلة المجمع العلمي العربي في (آب عام 1924) كانت كلها عربية وافرنجية متصلة بالزراعة والزهر والنبات .

فهو في مجلة المقتطف يؤكد في اولى ابحاثه عن « تقدم العلوم والفنون الزراعية » انه قرأ منذ ثلاثة عشر عاما بحثا لعالم أجنبي في خزانة بايزيد في القسطنطينية، قال هذا عام 1926 ومعنى هذا انه كان معنيا بهذه الدراسات منذ عام 1913 فيما قبل الحرب العالمية الاولى.

ويكتب مصطفى الشهابي للدكتور صروف يلفت نظره الى الفرق بين كلمة عالمية وكلمة اطروحة ، ويحبذ اطلاق كلمة (اطروحة) تعريبا لكلمة Thèse الفرنسية التي تعني الدكتوراه ولكنه يعارض أن تسمى شهادة العالمية ويقول ان اطلاق كلمة عالمية على الدكتوراه سيلزم اطلاق كلمة عالم على من ينال هذا اللقب ، ويفرق بين كلمة سافان Savant التي يطلقها الفرنسيون وكلمة عالم ، ويرى ان العالمية لا تعطى الا لمن اصبح كهلا وأفنى العمر في التخصيص والتنقير ، أما الدكتوراه فقد يحصل عليها الشاب في سن السابعة والعشرين من العمر ، ويقترح أن يطلق على حامل الدكتوراه لقب « حكيم » فيقال حكيم في الحقوق ، او حكيم في الآداب ، أو حكيم في الطب .

وفي مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) يكتب أول ما يكتب في آب 1924 تحت عنوان « قطع أغصان الشجرة » ويقول انه يباشر طبع كتاب (الاشجار والانجم المثمرة) وهكذا يبدأ عمله بالتخصص في اللفظ الزراعي ، ولا يلبث أن يكتب عن «ألوان الخيل وشياتها» ويبدأ نشر موسوعته الأولى تحت عنوان الفاظ عربية لمعان زراعية عام 1925 ثم لا يلبث ان يختار عضوا في المجمع العلمي بدمشق فيلقي في آذار 1927 محاضرته الاولى بعنوان (تاريخ الزراعة في العالم العربي) .

• • •

ولقد لفت نظري منذ وقت بعيد وأنا أراجع معاركنا الادبية موقفه من اسماعيل مظهر ورده عليه في محاولته اتهام العرب بالعقلية الغيبية ، وقد ذكر فيما ذكر ان لديه من « خلط علماء يونان في كثير من العلوم ما يملأ مجلدا ضخما » ، ومعنى هذا أنه كان قد واصل عمله العلمي بالرغم من مشاغله بمنصبه الرسمي اذ ذاك (مدير أملاك دولة سورية) .

وقد تناول الرد على اسماعيل مظهر مرتين ، مرة

في المقتطف ومرة في مجلة المجمع بعد صدور كتابه (ملقى السبيل) حيث قال ان المؤلف ذكر حظ العرب في البحث اليقيني فعزا اليهم نقائص وهنات كثيرة وكاد يجردهم من كل أثر علمي أو أدبي أو فلسفي ، وقد حاد المؤلف عن جادة الانصاف لانه لو سار في محاكمته على أسلوب يقيني محض لوجب ان يذكر ان العرب لم ينفردوا بأسلوبهم الغيبي بل كان هذا الاسلوب طابع مدنية من عاشوا معهم ومن درجوا قبلهم ، وحسب العرب أن يكونوا في التاريخ حفظة العلوم القديمة وموسعيها على قدر ما بلغته كافة البشر . »

• • •

وفي مراجعاتنا عن الامير مصطفى الشهابي لم نلبث ان طلع علينا في مجلة «الهلال» فيابريل 1930 بأولى مقالاته التي توالت ، وكان لها طابعها المختلف عن مقالات مجلتي المقتطف والمجمع العلمي العربي ، لانها تتناول موضوعات في الادب الخالص فهو يتحدث فيها عن فلسفة اللذة ، وفلسفة القوة ، ثم غرائب المطالعات ، وحقيقة الانسان وغرائب المصانعين ، وحديث بغل وحمار ..

ولكن الامير مصطفى الشهابي لا ينسى دولة الازهار والخيل والزرع ، وهو مهما تحدث عن ابن خلدون وعارض رأيه في أن الكتب التي تكون الاديب اربعة ، هي الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لابن علي القالي . وانه لا يجوز ارسال جملة مطلقة كهذه الجملة ، وحصر اصول الادب العربي في نطاق هذا العدد المحدد من الكتب ، وأن هناك من الكتب الاخرى الرائدة ما يحتاج اليه الاديب كالاغاني والعقد الفريد ، وخزانة الادب للبغدادي ، ورسائل الجاحظ وابن المقفع وسهل بن هارون وعمرو بن مسعدة ... بالرغم من هذا كله يعود الامير مصطفى الشهابي الى دولة الازهار والخيل والزرع ...

فما هو الا أن يطلع على القراء بذلك المقال الذي احببته منذ مطالع صباي وقراته مرارا ، واختارته الهلال في كتابها «أحسن ما قرأت» والمقال بعنوان : (الازهار المداسة) :

وفيه يقول الامير مصطفى الشهابي :

« كنت البارحة انحدر الى دمشق من داري في سفح (قاسيون) فاسترعى نظري جار يدوس أزهارا نابلة ملقاة في الطريق منها ورد وخطمى وخشخاش ومرغريته وغيرها تتخللها زهرات صغيرات من الفل ، وكلها قد حال لونها وفسدت رائحتها وزالت نضرتها ؛ فتذكرت على الفور قصيدة مرقصة بعنوان «السجينة» لشاعرنا العربي الامريكي الرقيق « ايليا ابو ماضي » وصف فيها زهرة كانت تعيش في الحقل قريرة العين ، هادئة البال ، سعيدة بالتراب الغني والهواء النسمي ، والظل الندي ونور الشمس ودفئها ، وترقص الاغصان على موسيقى الرياح ، وتطاير الفراش في انتهار وتهاوى النيازك في النيل ، فاذا بغاو من غواة الزهر يقطفها مغتبطا بها . فيضعها في زهرية ، ويسجنها في غرفه ، فتتالم وتتفجع ، وتستغيث من نظرات العشاق وانوف النشاق ... فلا رقص الكواكب في القصر كرقص الفراش في الحقل ولا المصابيح المتلألئة في الابهاء كنور الحباحب الضعيف في الدجى ، ولا عصر الحسان في عبقه كريح التراب في فعونه .

ونظرت الى الجار يطا تلك الازهار دون ان يعتذر أو يتخشع فدنوت منه وبدأت الحديث ثم قلت : أوتدري ياصاح ان من الازهار الجميلة النادرة نباتات تظل تجيء كما يريدون من حيث تكوينها وتزيينها ، وانهم بعد هذا يبيعون النبتة الواحدة من الصنف الجديد بعشرات من الجنيهات . هلا امعنت نظرك في أوراق هذه النباتات تدوسها ، وادركت أشكالها العجيبة من سنانية وسهمية ومستطيلة واهليلجية وكاملة ومقرصنة الى عشرات من الصفات المختلفة ، وقد اتخذ الناس كثيرا من أنواع الزهر علامات يدل كل منها على ضرب من النعوت المستملحة ، والصفات المستحبة ، فالبنفسج للحشمة ، والورد للجمال ، وشبه الشعراء أعضاء الحبيب بصنوف الزهر ، فجعلوا الخدود كالورد ، واللحظ كالنرجس ، والشفة كالشقائق ...

هل جال في خلدك ان تدخل قبة الصخرة في القدس ، او المسجد الاموي في دمشق فترى تزاويق الزهر وتعاريج الورق في زخرف عربي أخاذ ، هل عرجت على تدمر او بعلبك فرأيت الازاهر كيف تنقش في الصخر الاصم ولكم نقش المصريون الاقدمون زهرة اللوطس وورقتها على هياكلهم وأبنيتهم ونقودهم وحليهم وكم سحرت أوراق الاقحوان فناني اليونان والرومان فأوجدوها في أعمدة قصورهم وهياكلهم ....»

• • •

وهكذا يمضي الامير الشهابي في الحديث عن الزهر ، حديث الادب هنا وحديث العلم هناك في معاجمه وابحاثه المضطرده في مجامع دمشق والقاهرة وبغداد وهو في حياته يعيش علمه وفكره ، فاذا عرض لنا مذكرة من

يومياته احسسنا مدى اثر بيئته في فكره وعلمه – يقول في احدى مذكراته :

« كنت منذ بضعة أيام ممتطيا صهوة جواد من العراب يسير بى الهوينا تحت مسوق ادواح الغوطة الفيحاء في نفر من الصحاب كلهم من هواة الخيل وفرسان الليل وقد رق الهواء في ايام الخريف الذهبيات ، وسكنت الطبيعة وجملت الشجر تنتثر أوراقها وتتعرى لترقد في الشتاء ، وكانت الخيل قد شاركت الطبيعة في مظاهرها فكانت تسبح بنا سبحا ، وهي أساس ما تكون قيادا إلا فرسا جموحا هجينا أبطره القعود ، وفرط العلف ، فكان ينزو بصاحبه ويفرمض ويعرض (يمشى بالعرض) حتى اذا اقترب من فرسى شخر ونخر بصوت أجش ، ورفع احدى رجليه ولبط لبطة استقرت في داعصتى (صابونة الركبة) فترجلت أعرج ، وانتفض من الالم كالمقرور ، ازعده البرد او كالمحموم نفضته الحمى ، وفى دقائق معدودات حملتني سيارة الى الدار فجلست في حديقتها استريح على مقعد قبل بلوغ احدى الغرف فما راعنى الا زنبور يدوم في الهواء ، وكانه عقد على موعد، لانني ما كدت أجلس حتى انقض على سبابة يدى اليمنى فلسعها لسعة ورمتها ثلاثة أيام ...»

• • •

وهكذا يبدو الامير مصطفى الشهابي منذ مطالع حياته وهو يعيش في دولة الزهر والخيل والزراعة ، ومن هنا كان التصاقه الروحي والفكري بالعمل اللغوي الذي تخصص له ، والذي برز فيه وعد مرجعا من مراجعه في العالم العربي كله ...

واذا كان لي أن أستطرد في هذا المجال فاني اقول ان الشعر وهو احدى مواهب الامير الشهابي قدعاش ايضا في مجال الزهر والخيل ...

ففي قصيدته التي ودع بها القاهرة عام 1935 يقول :

القلب كالزئبق الرجراج ينفض من نـ
ـار التفرق خفاقا وموارا
يهيم في مصر ملتاعا ينش وقد
سار القطار بنا ليلا فما سارا
يا ساكنى عين شمس هل بأضلعكم
مأوى تحلون فيه ذلك الجارا
وهل تعلونه من ماء نيلكم
علا يسكن فى سوداته نارا
جاءوا الى بأزهار الوداع وقد
بلت دموعى أردانا وأزهارا
تصوح الزهر اشفاقا على فما
أصبحت منه ذكى العرف معطارا
أواه يا نسمات النيل ساجية
كم ضمك الصدر اشهاقا وزفارا
وكم تعطرت بالريحان وامتزجت
ريالك بالروض افنانا ونوارا
ما ان نشفتك حتى خلت منتعشا
ماء الحياة جرى بالجسم انهارا
وخلتني عدت مخضل الاهاب الى
شرخ الشباب قوى العزم جبارا
مهلا أحبائي انى عائد لكم
مهما تعنت هذا الدهر أو جارا
لولا دمشق وروض الغوطتين لما
تخيرت غير جنان النيل لى دارا

• • •

وبعد فان تاريخ الامير مصطفى الشهابى وكفاحه في مجال اللغة العربية يطول وقد عاد الى بالذاكرة اليه عبارته في أول كتابه (المصطلحات العلمية في اللغة العربية) حين يقول انه بدأ منذ ثلاثين سنة ينشر في مجلة المجمع العلمي بدمشق والمقتطف بالقاهرة باكورة هذه المصطلحات في علوم الزراعة وفي علوم المواليد الثلاثة من نبات وحيوان وجماد وانه ثابر عليها الى اليوم حتى تجمع له نحو عشرة آلاف لفظة عربية أو معربة وضعها قبالة الالفاظ الفرنسية او الاسماء العلمية وقد ضم معجم الالفاظ الزراعية المطبوع في دمشق 1943 وفي القاهرة 1957 معظمها

وقد تحدث الامير مصطفى الشهابى في مطالع بحثه عن نشوء اللغة العربية ووسائل نموها بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب . وتصدى لما واجهها ازاء نقل العلوم فى النهضة الحديثة وجهود المجامع الثلاثة فى دمشق والقاهرة وبغداد فى هذا الصدد ومضى يتحدث عن هذه المصطلحات حتى أغنى الباحث في مجالها .

ونحن اذ ننقل صورته الى مجلة اللسان العربى الزاهرة انما نذكر أولئك الرواد المغاربة في مجال المصطلحات واللغة أمثال عبد الله كنون ومحمد الفاسى وعبد العزيز بنعبد الله ، وأمامي له معجم عن الاصول العربية والاجنبية للعامية المغربية وأبحاث أخرى عديدة.

واذا جاز ان نتحدث عن الامير مصطفى الشهابى خارج مجال اللغة العربية فانا نقول انه واحد من رواد القومية العربية وأحد أفراد حلقة دمشق الصغيرة

وجمعية الاخاء العربي والجمعية القحطانية ... وحلقة الشيخ طاهر الجزائري وقد أجرى هذا الحديث فياضا في كتابه (القومية العربية : تاريخها وقوامها ومراميها) وله أيضا دراسته الخصبة عن (الاستعمار) ومئات الابحاث والمقالات في صحف العالم العربي في الادب واللغة والتاريخ .

وقد تناولته بالدراسة في موسوعة معالم الادب العربي المعاصر في مجال كتاب النثر وفي مجال حماة اللغة العربية ، وحياته حياة خصبة حافلة بالعمل النافع للفكر العربي ، ولد في حاصبيا من اعمال دمشق وتعلم في دمشق واستانبول ثم سافر الى فرنسا حيث حصل على اجازة في الهندسة الزراعية ثم عاد م نباريس 1914 الى استنبول حيث اتصل باعضاء جمعية المنتدى الادبى الذين كانوا يحملون لواء الدعوة العربية وقد اتجه الامير الى ميدان الفكر ، وولى عددا من المناصب حتى أصبح وزيرا للمعارف سنة 1936 ثم سفيرا لسوريا في مصر عام 1952 واشترك في المجامع الثلاثة واصدر معجمه الباهر ، ويرجع اهتمامه بالمصطلحات الى الحركة العربية التي كانت ترمى قبيل الحرب العالمية الاولى الى تحرير اللغة العربية من المسميات الاجنبية .

ويؤمن الامير الشهابي بان التراث العلمي والادبي والفلسفي الذى خلفه العرب والمسلمون لا مثيل له فى الكم والكيف جميعا في لغة ما من لغات العالم وهو لا يرى تعارضا بين العروبة والاسلام ، يقول « ان القومية العربية والاسلام يمشيان جنبا الى جنب دائما ولا يستطيع العرب أن يفعلوا ما فعل الترك في الالحاد وجعل الحكومة لا دينية » وهو يهاجم استعمال الحروف اللاتينية ويرى انها تبعدنا عن تراثنا العلمى وعن الشعوب الاسلامية التي تكتب بحروفنا وعنده ان تبديل قواعد اللغة الاصيلة يبعدنا عن فهم القرآن وهو تراثنا الاعظم دينا وقوميا ، ، ولا يجوز بحال العدول عن فهمه وتفهيمه مهما مست الحاجة الى تسهيل قواعد الصرف والنحو في اللغة الضادية ويرى ان مفردات اللغة العربية ومعاني المفردات وتعبيرات تلك اللغة واصطلاحاتها لم تجمد قط على حال واحدة منذ صدر الاسلام وهي التي يجب علينا العمل في سبيلها حتى تجاري العربية لغات أوربا الحية .

وفي الجملة فان الامير مصطفى الشهابي عالم لغوي وبحاثة واديب أقام منذ ثلاثين عاما دولة للزهر والخيل والزراعة في أدبنا العربي .

القاهرة ـ انور الجندي